شهادة الحسين(ع) ومديات الغاية

من التاريخ إلى فلسفة التاريخ

تختلف النظرة إلى ثورة الإمام الحسين(ع) وشهادته، من جهة هدف تلك الشهادة وغاية تلك الثورة، والمديات التي تسعى إليها، وهو ما يؤثر حكماً على فهمنا لوظيفة تلك الثورة وأدوار تلك الشهادة، وتالياً على وعينا لمجمل وظائف المنظومة العاشورائية (خطاب، شعائر، ثقافة..) وانتظاراتنا منها، وتعاملنا معها، والمقاصد التي نسعى للوصول إليها من خلال توظيفها ومجمل مضامينها.

وعليه يصح القول إنّ الاختلاف في فهم وظائف الثورة وأدوار الشهادة، يعود منهجياً إلى الاختلاف في فهم حدث الثورة نفسه ومقاصده، حيث يمكن أن نتحدث هنا في ثلاثة مستويات في النظرة إلى ذلك الحدث:

1-حدث في التاريخ للتاريخ؛ أي هو حدث منفصم إلى حدّ بعيد عن الحاضر، إلا من حيث بعض الاحتفاليات التي تعيدنا إلى ذاك التاريخ لنبقى فيه ويبقى فينا، من دون أي توظيف نشط وفعال لذاك الحدث في حاضرنا وقضايانا والتحديات التي نعيش.

2-حدث في التاريخ للحاضر؛ أي هو حدث في التاريخ لممارسة تغيير ما في الحاضر، وإن كان هذا التغيير تغييراً محدوداً وجزئياً، ومن دون أن يتموضع في رؤية شاملة وحضارية تأخذ هذا التغيير إلى مدياته الأبعد، وإلى أقصى الأهداف التي سعت من أجلها تلك الثورة ومعانيها.

3-حدث تاريخي لتغيير مسار التاريخ: هنا يوجد تغيير للحاضر والمستقبل، لكن هذا التغيير هو من ضمن رؤية حضارية شاملة، ترتكز على فلسفة كونية للإنسان والوجود والتاريخ، وتسعى إلى التغيير الشامل- وليس الجزئي- في المسار الحضاري لقافلة الاجتماع البشري،

والذي –أي ذاك المسار– ترى فيه هذه الرؤية انحداراً متمادياً في الجور واللاعدالة، وهي ترى في المقابل في فعل الثورة وحدث الشهادة وظيفة أساس، تتمثل في إحداث ذلك التغيير في ذاك المسار وتوفير مجمل مقدماته وشروطه والتمهيد لحصوله، حيث تنظر إلى هذا التغيير باعتبار كونه منعطفاً حتمياً وخلاصياً في آن، من ذاك الجور واللاعدالة، لكن بالارتكاز إلى تلك الثورة ووصلها مع الخلاص المهدوي.

إنّ ما تقدّم يتطلب أن نتحدث باختصار عن تلك الفلسفة الكونية (الرؤية الكونية) التي تذهب إلى أنّ بداية التاريخ البشري هي بداية آدمية (آدم)، وأنّ هناك نهاية للتاريخ البشري، لكنها نهاية مهدوية تقوم على أساس من سيادة العدالة في الاجتماع البشري بأوسع مدياتها في نهاية ذاك التاريخ، بعد أن أخفقت البشرية في إقامتها، وضاعت في تيهها الحضاري، وغرقت في بحور الظلم ولجج الجور.

إذن لا بد في نهاية ذلك التاريخ البشري من حدوث تحوّل جذري في مسار قافلة الاجتماع الإنساني من اللاعدالة إلى العدالة، ومن الجور إلى القسط، حيث سيحصل هذا التحول بسبب من الظهور المهدوي (خروج الإمام المهدي(ع)) وما يمثله هذا الظهور من خلاص حضاري لذاك الاجتماع البشري، بعد تيه حضاري تمادت أيامه لقافلته وسيره.

لكن من الواضح أن هذا التحول الجذري الشامل والحضاري في مسار قافلة البشرية واجتماعها؛ يحتاج إلى طاقة استثنائية وفاعلة، تكون قادرة على إمداد ذاك التحول بما يحتاجه من ديناميات فكرية، وثقافية، وقيمية، ومعنوية، ووجدانية، واجتماعية.. تفيه جميع حاجاته ومهماته في إحداث ذاك التغيير بأوسع مدياته، وأقصى مراميه.

أي إنّ انتشال الاجتماع البشري من سقوطه الحضاري إلى خلاصه الحضاري؛ يحتاج إلى طاقة خلّاقة وفاعلة، تكون قادرة على ممارسة ذلك الدور، وتحقيق ذلك الهدف، والوصول إلى ذاك المدى الذي تسعى إليه.

وهنا لن نجد كشهادة الحسين(ع) (وثورته)، وما تمثله من قيم، وتزخر به من دلالات، وما تحمله من معانٍ، وتشتمل عليه من وعي وفكر وثقافة ووجدان وقيم وعواطف ومشاعر..؛ روحاً معنوية قادرة على تخصيب تلك الطاقة، وتوليد تلك الديناميات الخلاقة، وإيجاد جملة الدوافع اللازمة لإحداث ذاك التغيير، وبلوغ ذاك التحول.

بهذا المعنى تضحى ثورة الحسين مشروع خلاص حضاري شامل للاجتماع البشري برمته، تتجاوز حواجز التاريخ، وتتعدى حدود الحاضر، وتخترق فواصل الجغرافيا والاجتماع والدين والعرق والطائفة واللغة والإثنية...، لتضحى على مقاس التاريخ، وبحجم الاجتماع الإنساني، وعلى مدى آماله وآلامه وأمانيه وخلاصه، ومجمل تطلعاته، وتوقه إلى الخير والعدالة.

هنا تصبح ثورة الحسين(ع) مشروعاً مستديماً لتحقيق الإصلاح والعدالة الشاملة في أرجاء المعمورة، ولجميع بني الإنسان. وهنا تصبح للمنظومة العاشورائية وظيفة كبيرة في الثقل، وغاية في الأهمية، تتمثل في رفد تلك الأهداف والغايات بما تحتاج إليه من طاقة ووعي؛ وتتجلى في إيجاد البنية التحتية المناسبة تربوياً وقيمياً وثقافياً وأخلاقياً واجتماعياً لتحقيق ذاك التغيير، وتوفير جميع الشروط اللازمة للوصول إليه، وإلى العدالة التي ينشد.

هنا يمكن الحديث عن عولمة عاشوراء، وعن إمكانية تحويلها إلى ثروة وثورة إنسانية يمكن لجميع الأمم المظلومة والمجتمعات التي تعاني الجور أن تنهل منها، وأن تستمد منها الطاقة والوعي والأمل والعزم والإرادة والفكر، والروح التي تساعدها على تجاوز ظلمها، ومواجهة ظالمها، وإصلاح أمرها، ومراودة القسط الذي تصبو إليه.

هنا تصبح عاشوراء مشروع استنهاض لجميع الأمم والشعوب، وفعل تنوير للمجتمعات على إطلاقها بهدف تحقيق الإصلاح، ومواجهة الفساد، وإعادة بناء المجتمع الكوني على أساس من العدالة، والسعي إلى إسقاط عولمة المترفين، وصناعة عولمة جديدة تقوم على قيم القسط، وقدرتها على تحقيق حياة مختلفة وعادلة لجميع بني الإنسان.

هنا تكون انتظاراتنا من عاشوراء كبيرة، وتكون انتظارات عاشوراء منا بعيدة، بمعنى أنه إذا كان لعاشوراء كل ذلك المدى، فهذا يعني أن يكون وعينا لتلك المديات بمستواها، وأن يكون توظيف المنظومة العاشورائية على قدر الآمال المعقودة عليها. وهو ما قد يتطلب العمل على تطوير تلك المنظومة العاشورائية، ومجمل ما يتصل بعاشوراء، لتكون أكثر قدرة على القيام بهذا الدور، وتحقيق تلك الغاية، والوصول بها إلى مدياتها الأبعد والمقصد الذي ترنو.

هنا تتحول منظومة عاشوراء (خطاب، فكر، شعائر..) إلى مشروع هادف لديه غايات بعيدة، وآمال عريضة، وسياسات وبرامج ورؤى ومقاصد بحجم الإنسانية وتاريخها ومستقبلها ومجمل تطلعاتها، وتوقها الأخير إلى العدالة التي غابت عنها أيام طويلة.